مقدمة

معجزة القرآن فى آية النحل

قال الله تعالى فى كتابه الحكيم :

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ۝ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝ ﴾

إن هاتين الآيتين تتضمنان معانى كبيرة لم يسبق ذكرها فى الآيات القرآنية الأخرى ، فقد بدئتا بوحى الله للنحل حيث لم يذكر وحيه « سبحانه وتعالى » لأى من الكائنات غير المكلفة الأخرى ، وختمتا بأن فيهما آية لقوم يتفكرون ، فتدعوان المختصين إلى التفكر أى التدبر والتمعن والتأنى فى التفكير فى معانيهما لإظهار حقيقة القرآن ومصدره من عند الله العليم الخبير .

فهل كان لسيدنا محمد عليه الصلاة والسلام أن يكتب عن النحل أية فكرة علمية منذ ١٤٠٠ عام حين لم يعرف عن النحل شيء ! إن التفسير العلمى الدقيق لآيات النحل يؤكد أنها ليست من تأليف بشر أيا كانت بصيرته ، لأن فيها معانى لم تعرف إلا فى العصر الحديث ، فلابد أن قائلها يعرف أسرار وسلوك وفوائد النحل قبل أن يعرفها الإنسان ، فلن يكون قائلها إلا الله خالق النحل وكل ما فى الكون ويكون فى هذه الآية دليل مادى على وجوده سبحانه وتعالى .

إن آيتى النحل اللتين تبدوان بالنظرة السطحية أنهما تسردان ما هو معروف لدى العامة عن حياة النحل ، بأنه يسكن فى الجبال والأشجار والعشوش والخلايا ، ويأكل من الثمرات ليخرج العسل الذى تعالج به بعض الأمراض ، وكل هذه المعانى كانت معلومة قبل نزول القرآن ببضعة آلاف من السنين ، لو تعمقنا فيهما لظهر لنا أن ترتيب الجمل فيهما ، وكل كلمة بل كل حرف منهما ينطبق تمامًا مع الحقائق التى لم تعرف إلا بعد عام ١٨٥١ حين اكتشف القسيس الأمريكى لنجستروث ، أن النحل يترك دائما مسافة معينة ثابتة بين أقراص الشمع التى بينيها لكى تسمح بمروره بينها وعلى أساسها صمم الخلية ذات الإطارات المتحركة ، والتى مازالت تعرف باسمه حتى الآن ، فأتاحت دراسة حياة النحل وسلوكه حتى عرفت عنه أشياء عديدة أمكن تطويرها واستغلالها .

إن هاتين الآيتين المعجزتين يعجز علماء النحل فى العصر الحالى أن يكتبوا مثلهما بهذا الأسلوب المتقن الذى فهمه واقتنع به أهل البدو منذ أربعة عشر قرنًا من الزمن ، وفى نفس الوقت تتابعان حقائق العلم الحديثة حيث تشيران إلى فطرة النحل التى لا تقل عن ذكاء الإنسان وتفوقه على جميع الكائنات النباتية والحيوانية ، وسلوكه أثناء التطريد ومصادر القيمة الشفائية للسوائل المتباينة التى تخرج من جسمه وهى العسل والغذاء الملكى والشمع والسم ، التى ثبت لكل منها فوائد علاجية من أمراض مختلفة ، ومازالت تظهر لكل منها فوائد متعددة كلما تعمق العلماء والمختصون فى دراستها .

حقًا إنها لمعجزة فى القرآن جاء بها الله سبحانه وتعالى لتكون دليلاً مستمرًا على أن القرآن ليس من تأليف بشر ، ولكنه كلام الله الخالق العليم الذى نزّله على رسوله سيدنا محمد ﷺ .

وبما أن لكل نبى معجزة يجب أن يأتى بها لكى يصدقه الناس ، فإن معجزة محمد هى القرآن يظهر فيه دقة التعبير عن حقائق الأمور التى تكتشف على مر العصور لتكون دليلاً على أنه كلام منزّل من عند الله يظهر تفسيره على لسان بعض عباده .

وقد كانت معجزات الأنبياء السابقين ملموسة ، إذ أن قوم كل نبىّ كانوا يرون تفوقه على مانبغ فيه أكثرهم قدرة وعلمًا .

فكانت معجزة إبراهيم عليه السلام أن أنجاه الله من الاحتراق بالنار بدون أن ينزل عليها المطر ليطفئها كما جاء فى قوله تعالى : ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ .

ومعجزة موسى عليه السلام أن تمكن بعصاه أن يشق البحر لينجو وأهله من عدوان فرعون ، كما جاء فى القرآن الكريم قوله ﴿اضْرِب بِعَصَاكَ الْبَحْرَ ... ...﴾ .

وكانت معجزة عيسى عليه السلام أنه كان يشفى الأكمه والأبرص ويحيى الموتى بإذن الله .

أما معجزة خاتم الأنبياء فيجب أن تكون مستمرة لكى تعيد للنفوس الإيمان كلما خبا على مر الزمان ، وقد تحقق هذا فى القرآن .

ومعجزة القرآن تختلف عن معجزات الرسل السابقين .. كما جاء فى التفسيرات المتقنة الشيقة الممتعة لفضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى ... معجزات الرسل خرقت نواميس الكون وقوانين الطبيعة أى أنها معجزات كونية ملموسة ، من رآها آمن بها عن بينة ، ومن لم يرها صارت عنده خبرًا ... .. إن شاء صدقه وإن شاء لم يصدقه ... .

وحيث أن كل رسول من عند الله يأتى مصدقا أو متمما لمن جاء قبله ، فقد ذكرت أنباء كثير من الرسل السابقين فى القرآن الكريم فأصبح المسلمون يصدقون بهم .

أما محمد خاتم الأنبياء ، فلكى يستمر الإيمان بما جاء به فيجب أن تستمر معجزته فى التأثير وأن تكون هذه المعجزة عقلية تساير التطور الذى يطرأ على البشرية ، والقرآن يحقق هذه المعجزة الأزلية ؛ فعلاوة على بلاغته التى بهرت أهل عصر الرسول حتى صدقوا به ، فإن بيانه لا يزال مستمرًا حتى قيام الساعة .. وآية النحل إحدى معجزات القرآن ... التى يوجد مثلها الكثير ولا يمكن أن يكتشفها ويظهرها إلا العلماء المتخصصون فى مجالات العلوم المختلفة ... .

وحيث أن معانى القرآن وبلاغته وإعجازه مستمرة مع تطور مظاهر الحياة وتجدد الاكتشافات ، فقد حفظه الله بنصه كما جاء فى قوله تعالى : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ وأمر المؤمنون أن يحفظوه بلغته ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ .

ولا يترجم القرآن لأى لغة غير عربية إلا لتفسير معانيه فقط وليس لكى يحفظ أو يقرأ بهذه اللغة ، لأن دقة الترجمة إلى أية لغة تعتمد على ما يفهمه المترجم ، وفى هذه الحالة قد تبدو بعض المعانى سطحية وقد يصعب تفسير بعضها ، وفى هذه الحالة قد تطمس إعجازات القرآن .

والمعانى السطحية الظاهرة فى آية النحل تسرد الواقع المعروف عن النحل منذ خلق الله الإنسان وألهمه أن يجمع منه العسل للتغذية عليه والتداوى به ، وفيها دليل على قدرة الخالق فى إكساب النحلة (وهى

حشرة ضعيفة) قدرة على تحويل غذائها إلى سوائل شافية للناس . ولكن بتوالى الاكتشافات وكثرة المعلومات عن النحل فى العصر الحديث ، ظهر فى هذه الآية إعجازات علمية ولغوية وطبية تفوق هذا المعنى السابق ، إذا تفكرنا فيها بعين العالم المختص ، بينما تبدو معانيها متناقضة وجملها ركيكة مليئة بالأخطاء إذا تمعنا فيها ونحن مكتفون بالأفكار السطحية ، وعلى ذلك فهذه الآية لا تشتمل فقط على قدرة الله سبحانه وتعالى على خلق النحل وإنتاجه العسل من بطونه ، بل تتضمن ما هو أكثر من ذلك بكثير ، لاسيما وأنها قد بدئت بوحى الله سبحانه وتعالى للنحل ، واختتمت بأن فيها آية لقوم يتفكرون ، وينطبق عليها قوله سبحانه وتعالى فى سورة آل عمران :

﴿هُوَ الَّذِى أَنزَلَ عَلَيْكَ الكِتَابَ مِنْهُ ءايتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الذين فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إلا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِى الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إلا أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾

والآيات المحكمات هى التى لا تحتمل تأويلاً ولا اشتباهًا ، مثل آيات التحريم والتحليل والوعد والوعيد والثواب والعقاب وآيات القصص وضرب الأمثال وآيات الفرائض والحدود ونحوها ، مما كان دليله واضحًا وميسورًا ، وهذه يضمها معظم القرآن الكريم . ولذلك عبر عنها الله بأنها أم الكتاب ، أما الآيات المتشابهات فهى التى تحتمل التأويل

والاشتباه ويصعب فهمها ، وقد تفسر بما ليس مقصودًا منها ، وقد يصفها المغرضون بالضعف ، وكلا النوعين المحكم والمتشابه من عند الله الذى لا يخفى عليه شيء .

ولعل الآيات المتشابهات التى كانت تبدو غامضة وقت نزول القرآن الكريم ، تتضمن أسرارًا عميقة أو وصفًا دقيقًا لبعض الظواهر الطبيعية التى لم تكن معروفة آنذاك ، ولا يزال بعضها غامضًا حتى وقتنا الحالى .

ومن الأمثلة الحية على هذا التفسير آية النحل فى القرآن الكريم التى تتطابق حرفيًا مع اكتشافات العلم الحديث بعد أربعة عشر قرنًا من نزول القرآن ، ومن المتوقع أن يتوالى تفسير جميع الآيات المتشابهات طالما استمرت الاكتشافات ، وبذلك يتجسم إعجاز القرآن فى لغته ومعانيه ويتجدد به الإيمان على مر العصور والأزمان .

وقد قرأت آية النحل بنفسى مئات المرات وتعودت أن أتلوها على طلابى عند افتتاح محاضرات علم تربية النحل فى كل عام ، ولكننى كنت دائمًا عندما أتلوها غيبيًا أخشى أن أخطىء فيها لعدم تسلسل جملها مع المعنى الدارج المعروف ، علاوة على بعض الاستفسارات التى تثار إذا تمعنا فيها ، وعلى سبيل المثال :

١ – لماذا كرم الله النحل وحده من الكائنات غير المكلفة ، حيث خصه سبحانه وتعالى بوحيه ، فهل يستحق النحل كل هذا التكريم ؟ ولماذا ؟

٢ – لماذا لم ينسب هذا الوحى إلى لفظ الجلالة (الله) وهو المعبود وإنما نسب إلى « ربك » أى خالقك ؟

٣ – لماذا جاء الكلام عن النحل فى صيغة التأنيث ، بينما كان الأمر للنمل مذكرًا فى سورة النمل ؟

٤ – لماذا لم يستعمل حرف « فى » بدلا من حرف « من » حين قال سبحانه وتعالى :

﴿ اتَّخِذِى مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴾

التى تعنى أن النحل يسكن فى الجبال وفى الشجر وفى العشوش ؟

٥ - ما أهمية ذكر مساكن النحل حيث أن تلمس الأماكن (الجبال والشجر وما يعرشون) تقطنها معظم الكائنات التى تعيش على الأرض من حشرات وطيور وزواحف وأنعام وقرود ووحوش وإنسان ؟

٦ – لماذا بدأت جملة « كلى من كل الثمرات » بحرف العطف « ثم » التى تعنى الترتيب مع التراخى أى بعد مدة زمنية ، ولماذا لم تبدأ بأحد حرفى العطف الآخرين « الواو أو الفاء » ؟

٧ – كيف يأكل النحل من كل الثمرات ومنها الحلو والمر ومنها اللين والصلب ، والمعروف أنه يأكل من الأزهر ولا يقرب الثمرات إلا إذا كانت حلوة الطعم وعصيرها مكشوف ، لأنه لا يستطيع أن يجرح أو يثقب غلاف الثمرة مهما كان ضعيفًا ؟ وذلك بخلاف

ما جاء فى معظم التفسيرات السابقة بأن النحل يأكل من الثمار حلوها ومرها .

٨ – ما أهمية وصف ما يأكله النحل (من كل الثمرات) مع أن الثمرات تأكل منها الحشرات الضارة والطيور فتتلفها وتفسدها ، فإذا كان النحل يأكل من الثمرات كما تأكل هذه الكائنات لأصبح مفسدًا ، ولو كان يجمع عصيرها من البساتين لأصبح سارقًا ، ولا تليق ولا تجوز أن تكون هذه الصفات نابعة من وحى الله .

٩ – جملة ﴿فاسلكى سبل ربك ذللاً﴾ التى معناها المفهوم هو قدرة النحل على الطيران فى أجواء السماء تستدعى كثيرًا من علامات الاستفهام :

(أ) إذا كان معناها ذلك حقًا فكيف جاءت بعد جملة ﴿ثم كلى من كل الثمرات﴾ ؟ والمفروض أن تسبقها لأن النحل يطير باحثًا عن غذائه ثم يأكل منه .

(ب) لماذا بدأت بحرف العطف « الفاء » التى تعنى الترتيب مع التعقيب ؟

(جـ) لماذا لم تنسب كلمة السبل فيها إلى لفظ الجلالة (الله) ، وإنما نسبت إلى رب النحل أى خالق النحل ؟

١٠ – ﴿يخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شرابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ للناس﴾ فيها استفسارات كثيرة :

(أ) كيف جاءت هذه الجملة بعد الجملة التى تفيد سلوك النحل سُبُل ربّها إذا كان المقصود بمعناها الطيران ؟ والمعروف أن النحل يخرج من بطنه العسل وغيره بعد أن يأكل وليس بعد الطيران .

(ب) لماذا لم يذكر صراحة أن العسل هو الذى يخرج من بطون النحل كما جاء أن اللّبن يخرج من الأنعام ؟

(جـ) لماذا وصف ما يخرج من بطون النحل بأن « فيه شفاء للناس » مع أنه عند نزول القرآن على الرسول عليه الصلاة والسلام كانت معظم استعمالات العسل للغذاء ولم يوصف للعلاج إلا فى حالة الارتباكات المعوية ، بينما لم يأت ذكر النباتات الطبية فى أى من الآيات القرآنية مع أن استعمالها كان يفوق استعمال العسل فى التداوى ؟

(د) مع أن العسل لم يذكر فى هذه الآية فلم يأت ذكره فى أى من الآيات القرآنية إلا عند وصف الجنة ضمن قوله تعالى : ﴿وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ [١٥ من سورة محمد] .

﴿وَيُسْقَون من رحيقٍ مختوم﴾ [٢٥ من سورة المطففين]

والمعروف أن العسل (فى الحياة الدنيا) هو رحيق الأزهار بعد أن ينضجه النحل ويختمه بالشمع .

١١ – «إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون» معناها أنه عند التعمق فى التفكير فى هذه الآية يبدو واضحًا صدق نبوة سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة والسلام ، وأن القرآن الكريم ليس من تأليفه بل من عند الله الذى خلق جميع الكائنات ويعلم خفاياها ، فهل يمكن ذلك حقًا ؟

نرجو أن يوفقنا الله .

إن التقدم الهائل للعلوم فى القرن التاسع عشر وما تلاه من قفزات واسعة ومرتفعة ، هزت التكوين الروحى للإنسان فى فترة من الزمان ، وجعلت بعض العلماء لا يفكرون إلا فى المادية الملموسة ، وأنكروا وجود الله أى وجود خالق لهذه الحياة معتمدين على نتائج للعلم لم تكن بعد مكتملة، فوجود الله خالق هذه الدنيا لم يمكن إثباته كما لم يمكن نفيه بالعلم حتى الآن ، ولكن بالتفسير العلمى الدقيق لآيتى النحل نخرج بدليل مادى ملموس على وجود الله الذى خلق كل شىء وأحسن تقديره ؛ إذ أنهما تتضمنان معانى لم تكن معروفة وقت نزول القرآن الكريم ، ولكنها عرفت فى العصر الحديث ، مما يؤكد أن القرآن الكريم من وحى الخالق، كما جاء عن النبى ﷺ عندما مر على قوم يتفكرون فى «الله» فقال «تفكروا فى الخلق ولا تتفكروا فى الخالق فإنكم لا تقدرون قدره» .

ولو تفكر العلماء المتخصصون كل فى مجاله لظهرت أدلة محسوسة كثيرة على وجود الله ، ولظهر التوافق بين العلم والدين ، وحينئذ يحق فى العلماء قوله تعالى :

﴿يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾

وقوله تعالى كذلك :

﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾

وفى قول رسول الله عليه الصلاة والسلام « لا عبادة كتفكر » ، وقوله « وهل ينفع القرآن إلا بالعلم » ، وستظل فى القرآن الكريم آيات كثيرات غامضات تتوالى تفسيراتها بين الحين والحين حتى تقوم الساعة كما جاء فى سورة الأعراف :

﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * هَلْ يَنظُرُونَ إِلا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُواْ لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ*﴾